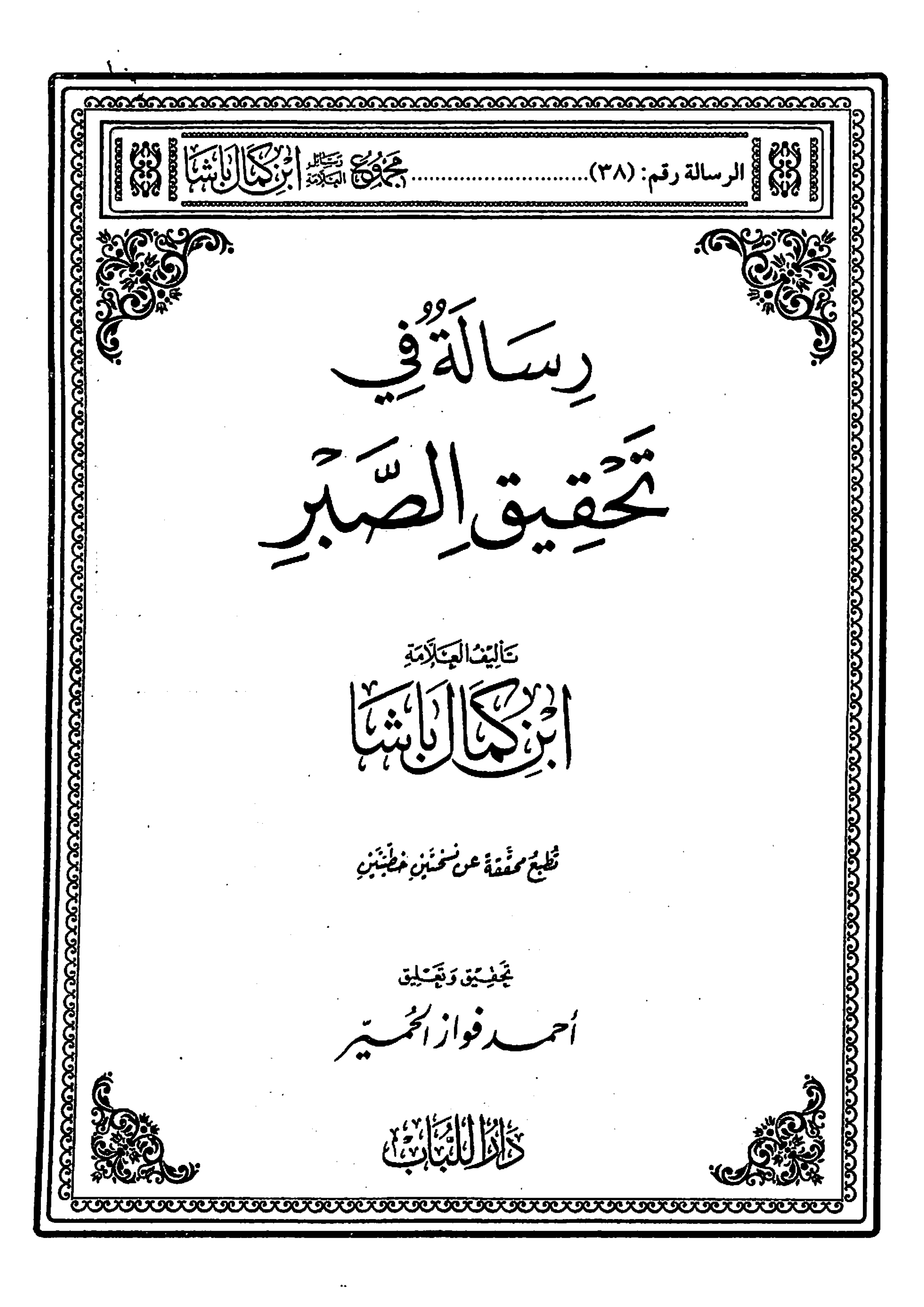


رسالة في تحقيق الصبر

تأليف العلامة

ابن كمال باشا

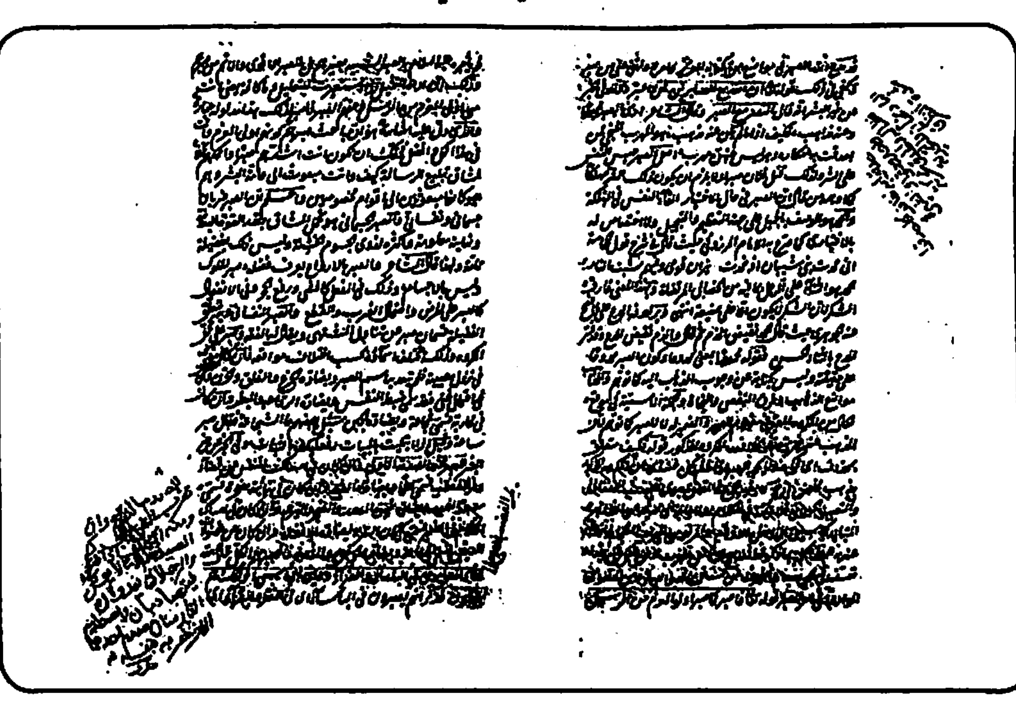
تطبع محققة عن نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق

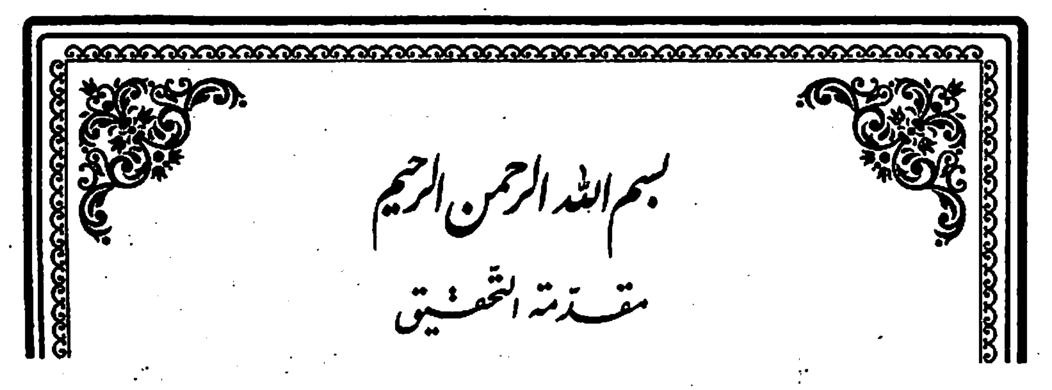
أحمد فواز الحمير

دار اللباب

مكتبة بغدادي وهبي (ب)



مكتبة خالد أفندي (خ)



الحَمْدُ لله الَّذِي ثَقَّلَ مِيزانَ الصَّابِرِينَ بجَزِيلِ الحَسَنات، وأَوْفَى لهُمْ أَجْرَهُم غيرَ مَنْقُوصٍ، وشرعَ لهم أبوابَ الجَنَّات، وَجعلَهُم مِنَ المُرْتَقِين فِي الدَّرَجَات معَ الصَّالِحِين وأُولِي الطَّاعَات.

وأشـهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا الله وحـدَهُ لا شـريكَ لـهُ، شَـهادةً تُنْجِـي قائلَهـا مـن الوَيْـلات، وتُطهِّـرُه مـنَ الآثَام والـزَّلَّات، وأشـهدُ أنَّ سـيِّدَنا مُحمَّداً عبدُه ورسـولُه المؤيَّـدُ بالمُعْجـزَات، والرَّحمـةُ المُهْـدَاة، ﷺ وعلى آلِـه وصَحْبِـه ذَوِي الفَضْـل والمَكْرُمَـات.

أمَّا بعدُ:

فـإنَّ مَقـامَ الصَّبْرِ مقامٌ رَفِيع، وشَـأْنُ كُلِّ مُتَّبِعٍ ومُطِيع، بِهِ يُمَحِّـصُ اللهُ المُؤْمنين، وهو مقـامُ الأنبيـاءِ والأَوْلِيـاء والصَّالِحِين، قـال تعالـى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

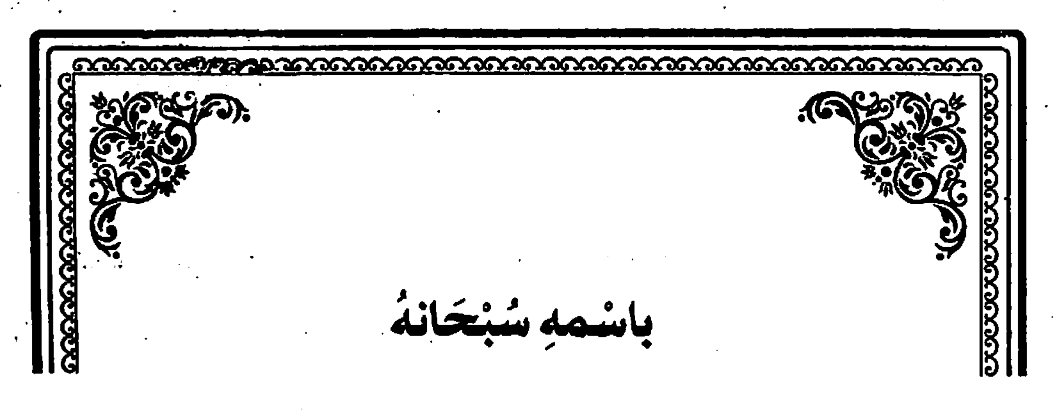
وهـذِه رِسـالةٌ يُبيِّـنُ فيهـا العالِمُ الألمعـيُّ، والفَقِيـهُ اللَّوْذعـيُّ ابنُ كَمال باشـا حَقِيقـةَ الصَّبْـر وأنواعَـهُ، ويذكـرُ أنَّهُ نَوْعان جِسْـمانيٌّ ونَفْسـيٌّ، ويوضِّحُ مـا يندرجُ تحتَهُمـا بعبـارةٍ مُخْتصـرةٍ وجَزالـةٍ مُعْتبـرةٍ، وطريقـةٍ مُبْتكـرَة، مـعَ فوائـدَ جَمَّـة، وفرائـدَ مُهِمَّة.

هذا؛ وقدْ وفَّقني اللهُ عزَّ وجلَّ للوُقوفِ على نُسَختين خطِّيتين لهذِه الرِّسالةِ، وهما النسخةُ المحفوظةُ في مكتبةِ بغدادي وهبي ورمزها (ب)، والنُّسْخة المحفوظة في مكتبةِ خالد أفندي ورمزها (خ)، فلَهُ الحَمْدُ والمِنَّة.

واللهَ أسألُ أنْ يكتبَ لها القَبُول، إنَّهُ خيرُ مأمُولٍ، وأكرمُ مَسْؤُول، والحمدُ لله الَّذي تتمُّ بنعمتِه الصَّالحات.

المحقق

* * *



باسمهِ سُبْحَانهُ

الحمدُ لوليِّهِ، والصَّلاةُ علَى نَبيِّهِ. وبعدُ:

فهَذهِ رِسالةٌ مَعمولةٌ في تَحقيقِ الصَّبرِ[1].

قدْ مدحَ اللهُ تعالى الصَّبرَ في مَواضعَ مِن كِتابهِ العَزيزِ، وأمرَ بهِ وأثنَى عَلى مَن صبَرَ، وكفَى في ذَلكَ قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] لمنِ اعتَبرَ.

وقدْ وردَ في الخَبرِ عَن خيرِ البَشرِ أنَّهُ قالَ: «النَّصرُ معَ الصَّبرِ [illegible] الشَّاعرُ:

شعر [من الطويل]

أرى الصَّبرَ مَحموداً وعَنهُ مَذاهبُ فكَيفَ إذا لم يكُنْ عنهُ مَذهبُ

هُو المهرَبُ المُنجِي لمنْ أحدَقتْ بهِ[3] مكارهُ دهرٍ لَيسَ عَنهنَّ مَهربُ[4]

أصلُ الصَّبرِ: حَبسُ النَّفسِ عَلى الشرِّ، ولذَلكَ: قُتلَ فُلانٌ صَبراً، ولا يلزمُ أنْ

---

(١) من قوله: «باسمه سبحانه» إلى هنا ليس في (خ).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٨٠٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في حاشية (خ): «حَدَّقوا به: أطافوا؛ كأَحْدقوا واحدودقوا، والشيء: نظرَ إليه، والحدق محركة الباذنجان، والتَّحديقُ: شدَّةُ النَّظرِ».

(٤) البيتان لابن الرومي، وهما في «ديوانه» (ص: ١٤٧).

يكُونَ ذلكَ الشرُّ مُهلِكاً كما أوهَمهُ مَن قالَ: إنَّ الصَّبرَ في حالِ الاختيارِ إلقاءُ النَّفسِ في التَّهلُكَةِ.

والحمد: هو الوَصفُ بالجَميلِ عَلى جهةِ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ، ولا اختِصاصَ لهُ بالاختِيارِ[1] كما صرَّحَ بهِ الإمامُ المَرزوقيُّ حيثُ قالَ في شرحِ قولِ «الحَماسةِ»:

إنِّي حَمِدتُ بني شَيبانَ إذ خمدَتْ[2] نِيرانُ قومِي وفيهِمْ شبَّتِ النارُ

الحمدُ: هُو الثَّناءُ عَلى الرَّجلِ بما فيهِ مِن الخِصالِ المُرتضاةِ، وبهذا المعنَى فارقَ الشُّكرَ؛ لأنَّ الشُّكرَ لا يكُونُ إلَّا عَلى صَنيعةٍ، انتَهى[3].

ويُرادفهُ المدحُ عَلى ما أفصَحَ عنهُ الجَوهريُّ حيثُ قالَ: الحمدُ نقيضُ الذَّمِّ[4]، ثمَّ قالَ: والذَّمُّ نَقيضُ المدحِ[5]، وقد فُسِّرَ المدحُ بالثَّناءِ الحسنِ.

فقَولُه[6]: «مَحمُوداً» بمَعنى «مَمدُوحاً»، وكونُ الصبرِ مَمدُوحاً عَلى حَقيقتهِ، ولَيسَ بكِنايةٍ عَن وُجوبِ الذَّهابِ إليهِ كما تُوهِّمَ.

والمَذاهِبُ: مَواضعُ الذَّهابِ، وطرُقُ التَّقصِّي والنَّجاةِ، والجُملةُ الاسميَّةُ في مَوقعِ الحالِ مِن المَكروهِ المُعتبرِ في مَفهومِ الصَّبرِ، والضَّميرُ لهُ، لا للصَّبرِ كما تُوهِّمَ؛ لأنَّ المَذهبَ عنهُ غيرُ مُتعدِّدٍ بخِلافِ المَكروهِ المَذكُورِ.

---

(١) في (خ): «بالاختياري».

(٢) في (ب): «حمدت».

(٣) انظر: «شرح الحماسة» للمرزوقي (ص: ٢١٩).

(٤) انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٤٦٦) (مادة: حمد).

(٥) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٩٢٥) (مادة: ذمم).

(٦) أي قول ابن الرومي السابق: أرى الصبر محموداً... إلخ.

قولهُ: «فكَيفَ» متعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: فكَيفَ لا يُحمدُ الصَّبرُ إذا ما لم يَكنْ عنهُ؛ أي: عَن المَكروهِ المَذكُورِ مَذهبٌ مخلِّصٌ؛ إذ حِينئذٍ لا يغيِّرُ الجزعُ والقَلقُ سِوى النَّصبِ النَّفسانيِّ والتَّعبِ الجِسمانيِّ، فلا هُجنةَ في الكَلامِ، ولا حَاجةَ إلى صَرْفِهِ عَن الظَّاهرِ المُتبادرِ كما سبقَ إلى بعضِ الأوْهامِ.

والمُرادُ مِن المَهربِ الملجَأُ، وإنَّما عبَّرَ عنهُ بهِ؛ للمُشاكلةِ بما ذُكرَ في المصراعِ الثَّاني من الهَربِ.

ومَن غَفلَ عنْ هَذا تَعسَّفَ في الجَوابِ، وانصَرفَ عَن سَنَنِ الصَّوابِ.

ومِن النُّصوصِ الواردةِ في أمرِ الصَّبرِ قولُهُ تَعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] لم يأمُرْهُ عليهِ السَّلامُ بالصَّبرِ الشَّبيهِ بصَبرهِمْ، بلْ بالصَّبرِ الأقوَى والأتمِّ مِن صَبرهمْ؛ وذلكَ أنَّ أداةَ التَّمثيلِ إذا استُعيرتْ للتَّعليلِ و(ما) كافَّةٌ؛ يعنِي: أنتَ مِن أُولي العَزمِ من الرُّسلِ[1] وحقُّهم الصَّبرُ فاصبِرْ لذَلكَ، هَذا مَدلُولهُ عِبارةً.

والَّذِي دلَّ عَليهِ إشارةً: هُو أنَّ باعِثَ صَبرِهمْ كونُهم أُولي العَزمِ، وأنتَ في هذا أكملُ وأفضَلُ؛ فحقُّكَ أنْ تكونَ أنتَ أشدَّهمْ صَبراً، وأكمَلَهمْ تحمُّلاً لمشاقِّ تَبليغِ الرِّسالةِ، كيفَ وأنتَ مَبعوثٌ إلى عامَّةِ البَشرِ، وهمْ كانوا مَبعوثينَ إلى أقوامٍ مَخصُوصينَ.

واعلمْ أنَّ الصَّبرَ ضَربانِ: جِسمانيٌّ ونَفسانيٌّ:

والصَّبرُ الجِسمانيُّ: هُو تحمُّلُ المشاقِّ بقَدرِ القوَّةِ البَدنيةِ، ونهايَتهُ مَعلومةٌ وأكثرُهُ لذَوي الجُسومِ الخَشنةِ، وليسَ ذَلكَ بفَضيلةٍ تامَّةٍ، ولهذا قالَ الشَّاعرُ: [من الكامل]

---

(١) «من الرسل» ليس في (ب).

والصَّبـرُ بـالأرواحِ يُعـرَفُ فضـلُـهُ   صَـبرُ المُلـوكِ ولَيـسَ بالأجسَـامِ

وذَلكَ في الفِعلِ؛ كالمشيِ ورَفعِ الحَجرِ، وفي الانفِعالِ؛ كالصَّبرِ عَلى المَرضِ، واحتِمالِ الضَّربِ والقَطعِ.

والصَّبـرُ النَّفسـانيُّ ـ وبهِ يتعلَّـقُ الفَضيلةُ ـ قسـمانِ: صبرٌ عَن تَناولِ المُشـتَهى، ويُقـالُ لهُ: العفَّـةُ[1]، وصبرٌ عَلـى تحمُّلِ المَكروهِ، وذَلكَ يَختلفُ أسـماؤهُ بحَسـبِ اختِـلافِ مَواقعـهِ، فـإنْ كانَ ذَلـكَ فـي نُـزولِ مُصيبـةٍ، فلـمْ يتعـدَّ بـهِ اسـمَ الصَّبـرِ، ويُضـادُّهُ الجـزعُ والقَلـقُ والحَـزنُ، وإن كانَ فـي احتِمـالِ غِنـىً، فقـدْ سـمِّيَ ضَبطَ النَّفـسِ، ويُضـادُّهُ الرَّقاعةُ والبَطـرُ، وإنْ كانَ في مُحاربةٍ، فيُسـمَّى شَـجاعةً، ويضادُّه الجُبنُ.

سئلَ بَعضُهمْ: ما الشَّجاعةُ؟ فقالَ: صَبرُ ساعةٍ، وقيلَ: إذا ابتُليتَ بالبَياتِ فعَليكَ بالثَّباتِ.

وفي الخبرِ عَن خيرِ البَشرِ: «الصَّبرُ عندَ الصَّدمةِ الأُولى»[2].

وإنْ كانَ في إمسَاكِ النَّفسِ عَن قضاءِ وَطرِ الغَضبِ، فسُمِّي حِلماً، ويُضادُّهُ التَّذمُّر، وإنْ كانَ في نائبةٍ مُضجِرةٍ، فسُمِّي سعةَ الصَّدرِ، ويُضادُّهُ ضِيقُ الصَّدرُ والضَّجرُ والتبرُّمُ.

وإنْ كانَ في إمسَاكِ كلامٍ في الضَّميرِ، فسمِّي كِتمانَ السِّرِّ، ويُضادهُ الإفشَاءُ.

وإنْ كانَ عَن فُضولاتِ العَيشِ فسُمِّيَ قناعةً، ويضادُّهُ الحِرْصُ والشَّرهُ.

---

(١) في (خ): «الفقه».

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فالصَّبرُ يعمُّ الكلَّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فذكرَ أنَّهم يَصبِرونَ في البَأساءِ؛ أي: في الفَقرِ والضَّراءِ؛ أي: في المُصيبةِ، وحينَ البأسِ؛ أي: المُحاربةِ.

ولمَّا كانَ جَميعُ المحامِدِ ضَربينِ: تركُ الشَّرِّ، ويعبَّرُ عنهُ بالصَّبرِ، وفعلُ الخَيرِ يعبَّرُ عنهُ بالشُّكرِ، صارَ الصَّبرُ الَّذي هُو تَركُ الشرِّ نِصفَ الآثارِ المُترتِّبةِ عَلى الإيمانِ الحَقيقيِّ.

ومِن هُنا[1] انكَشفَ وَجهُ قولِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الصَّبرُ نِصفُ الإيمانِ»[2][3].

***

(١) في (خ): «ههنا».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧١٦)، وفي «الزهد الكبير» (٩٨٤)، والشهاب القضاعي في «مسند الشهاب» (١٥٨) وغيرهم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. وإسناده ضعيف كما قال الحافظ في «تغليق التعليق» (٢/ ٢٣ـ٢٤)، والصواب وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه، كما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٦٦)، وغيرهما.

(٣) في خاتمة النسخة (ب): «تم ما وجد بعون الله تعالى وحسن توفيقه».